مولانا غلام علي آزاد البلغرامي كاتبا و شاعرا

بقلم : البروفيسور الدكتور محمد اجتباء الندوي
(الهند)

حديثي الآن عن الشخصية الفريدة الفذة التي امتازت بالمدائح النبوية فلقبت بـ "حسان الهند" ، وهي الشيخ العلامة مير غلام علي آزاد البلغرامي الحسيني الواسطي ، ولد في بلدة "بلغرام" في ٢٥/صفر ١١١٦هـ الموافق ١٧٠٤/٥م ، قرأ على جده لأمه العالم الجليل الشيخ عبد الجليل علوم اللغة والسيرة النبوة والحديث النبوي ، واللغتين :العربية والفارسية ، وبرع فيهما ، ولم يكن مثيله بعصره في علوم النحو والمعجم ، والشعر وفن البديع والتاريخ والسير والأنساب .

تشرف بالحج وزيارة الحرمين الشريفين عام ١١٥١هـ ، واستفاد من علمائهما ونهل من معينهما الصافي النقي ، وعاد إلى الهند وأقام في مدينة "أورنغ آباد" بجنوبي الهند ، ووافته المنية فيها سنة ١٢٠٠هـ الموافق ١٨٨٥/٦م ، وكان تاريخ وفاته "آه غلام علي آزاد" .

وألف في كل علم وفن ومن أهم مؤلفاته : ضوء الدراري في شرح صحيح البخاري ، وتسلية الفؤاد (قصائد) تراجم العلماء ، وشفاء العليل ، غزلان الهند ، سروآزاد ، اليد البيضاء ، والخزانة العامرة ، ومآثر الكرام في تاريخ بلغرام ، ترجم فيه علماء ومشايخ بلغرام ، وله مؤلف في أنساب بلغرام "الشجرة الطيبة" والسبحة السعادة ، تشتمل (السبعة السيارة) على سبعة دواوين شعر له ، وأضيفت إليها ثلاثة أخر فصار عشرة كاملة .

وأعظم كتاب له صيت ذائع ونفع عظيم هو : "سبحة المرجان

في آثار هندوستان" ، قال عنه المغفور له الدكتور محمـد فضـل الرحمن الندوي الذي نال بدراسته وتحقيقه في جامعة عليكره الإسلامية "شهادة الدكتوراه" ١٩٧٦م في مقدمته :

"هو أول كتاب ألف في تراجم علماء الهند وعلومها باللغة العربية" و "مهد السبيل لمن تبعه ..." (ج/١ ، ص/ألف) .

وقال المؤلف معرفاً كتابه : "أما بعد ! فهذه نسخة لم ينسج أحد على منوالها ولا سمحت قريحة بمثالها وفق الله تعالى بتأليفها عبده المتوكل والمتوسل إليه الفقير غلام علي الحسيني نسباً والواسطي أصلاً والبلغرامي وطناً ... جمع فيها ما وجد من ذكر الهند في التفاسير العظيمة والأحاديث الكريمة (ج/١ ، ص/٧) .

وللكتاب أربعة فصول ، وهي كالتالي :

١- في ما جاء من ذكر الهند في التفسير والحديث .

٢- في ذكر العلماء أنار الله براهينهم .

٣- في محسنات الكلام .

٤- في المعشوقات والعشاق .

وسأتحدث عن روائع كتابته وبدائع شعره لتستجلى صورته كاتباً وشاعراً ، وستكون أكثر النماذج لنثره من الفصلين الأخيرين ونماذج شعره من المدائح النبوية وبعض القصائد الأخرى إذا اتسع المجال بإذن الله تعالى ، ذكر العلامة آزاد البلغرامي في فصل محسنات الكلام أنها نقلت عن الهندية إلى العربية ، وكان قد ألفه باسم : "تسلية الفؤاد" ثم ضمها إلى كتابه : "وقد حررت فصلاً في كتابي تسلية الفؤاد فأجعله جزءاً من هذا السواد" .

ويقول : "... ثم إن قدماءهم الذين كانوا قبل زمان الإسلام استخرجوا من الكلام بدائع وافية واستنبطوا من رشحات الأقلام

صنائع شافية منها مشتركة بين العرب وبينهم كالتورية وحسن التعليل وتجاهل العارف ... ومنها مختصة بالعرب كاستخدام المضمر وحسن التخلص ... ومنها مختصة بالهند ..." (سبحة المرجان : ج/٢ ، ص/٣٨).

ويقول أيضاً موضحاً بما أشار إليه : "وأنا قصدت أن أنقل القسم الأخير عن الهندية إلى العربية ، فرأيت بعضها لا يقبل النقل لخصوصيته بلسان الهند وبعضها يقبل النقل ؛ فنقلت عنها نبذة وجدتها فائقة ..." (سبحة المرجان : ج٢ ، ص/٣٨) .

وقال : "وأرجو من العرب العرباء أن يستحسنوا مخترعات الأهاند" (المصدر السابق) .

وأشار إلى منهجه ؛ فصرح : "عمدت على استخراج الأمثلة عن المجاميع والدواوين سنحت لي نبذة من الأنواع وظفرت بأقراط ثمينة للأسماع ، فاخترت من الأنواع الهندية ثلاثة وعشرين ، وسميتها في العربية بأسماء بمسمياتها" (أيضاً) .

وقد أحصى هذه البدائع وذكرها بالترتيب ، يراجع الكتاب من يرغب المزيد ، وكذلك ذكر من المستحسنات العربية سبعاً وثلاثين ، وهي تدل على ملكته المحكمة وقدرته الفائقة على اللغة العربية .

وقال في المقالة الرابعة عن القصيدة البديعية : "قد عرضت على جناب الأدباء وساحة الكملاء ما أردت إيراده من المحسنات الكلامية والبدائع الأقلامية ، ثم مشيت على آثار أصحاب البديعيات ونظمت قصيدة فائقة على أزهار الربيعات ، وأخرجت من عمق البحر غرر الدرر وجددت البديع في المائة الثانية عشرة وأبيات قصيدتي مائة و واحد ، سالمة من تكرار القافية حافة للمطالب الوافية ..." (سبحة المرجان : ج/٢ ، ص/٢٨٤) .

وأما الشعر فكان يملك ناصيته ويقدر على أن يجعل كلامه كله

شعراً ، لذلك صدرت له سبعة دواويــن وسماهــا : "السـبعة السـيارة" وأضاف إليها ثلاثة أخرى فكملت عشرة ، ويحلو لي بأن أقول : مولانـا غلام علي آزاد أكثر عطاء وأغزر إنتاجاً مـن بنـات شـفته مـن لشـعر العربي في بلادنا الهند ، ولو أن شعره كلــه ليـس علـى مسـتوى جيـد يوازن بالشعراء الآخرين أو بالمقارنة مع الشعراء العرب ، ولكنه يمتـاز في العصر الذي عاش فيه بغزارته وتفوقـه وخبرتـه الطبعيـة القويمـة ، وامتاز بمدائحه النبوية وغزارتها ، ومن ميزته أنه يفتتح كل قصيـدة لـه بمدح النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم ، ولأجل هذا تشرف بلقـب : "حسان الهند" (١) ، وهو يقول :

توجت رأس كل ديوان بمدح النبي الكريم ﷺ يتمنا ..." (ديوان آزاد : ص/٢٤٨) .

وقد أعجب به العرب كثيراً وأثنوا عليــه كمــا ســجل تلميـذه "لكشمي نارائن شفق" كلمة العلماء عن عبقريته وشخصيته الفذة ، فقد قال محمد قدرة الله : "إن الهند لم ينظم فيها أحد القصــائد العربيـة على النمط الذي جاء به العلامة غلام علي آزاد" .

(نتائج الأفكار : ص/٥٩) .

ويقول آزاد عن محاولاته الشعرية بنفســه : "أمــا بعــد ! فيقـول العبد المستفيء بالنور التهامي آزاد الحسيني الواسطي البلغرامي : إنـي صرفت العمر في مذاكرة العلوم العربيــة ، وشمـرت الذيـل في مزاولـة الفنون الأدبية ونظمت من الخرائد ما يجلو نواظـر البصـراء ، وجمعـت من الفرائد ما تقرعيون الأدباء إلى أن رتبت بعونه تعالى سبعة دواوين

(١) ذكر السيد فرزند أحمد في كتابه : "تذكرة جلوه خضر" أن ملك اليمن منحه لقب "حسان الهند" وأرسل إليه هدايا وتحفاً ثمينةً .

و وزنت الجواهر الزواهر بسبعة موازيـن وسميـت الدواويـن السـبعة بالسبعة السيارة" (مقدمة الديوان السابع : ص/٣١٠) .

وقد ذكرنا أعلاه أنه أضاف ثلاثة أخرى . .

ويحتوي الديوان الأول معظمه بمدائح النـبي الكريـم ﷺ أذكـر أبياتاً منه :

بـــرهان رب العـــالمين حبيبـــه
فـــي الأمة الأميـــة العربـــاء
هو نيّر أسنى الكـــواكب ساطع
مـــلأ الأهلـــة كلهـــا بسنـــاء
مـــن معشر الإنسان إلا أنـــه
إنسان عين المجـــد و العليـــاء
شمس تجلب غـــير أن مسيرهـــا
فـــوق الطـــريق ليلة الإسراء
يوم القتـــال من السيوف ظلاله
و يقـــوم في العرصات تحت لواء
و سابق و ظهـــــوره متأخـــر
كنتيجة الإشكال للعلماء (ص/٢)

كان الحنين إلى زيارة المدينة المنورة قد سـيطر عليـه ولا يقـر لـه قرار، ولم يكن يملك الزاد والراحلة ، فخرج ماشياً على الأقدام ، وقال :

لو كنت أخبر جيرتي و عشيرتـي
لتـــزاحموا بيني و بين رجائـــي
فخـــرجت عنهم خائفاً مترقبـــا
شوقي أمامي و الأناس ورائـــي
شمرت ذيلي و المطيـــــة أرجلي
أرج النسيم معي من الـــرفقاء

و مشيت من غير المطيـة برهـة
مع أن جسمـي ضامر الأعضـاء
حتى لقيت من المهيمن نعمــة
مــوفــورة بالــبر والداءــاء

(يشير إلى نظام حيدرآباد)

وأريد أن أذكر هنا أبياتاً من قصيدته الرائعة ؛ قل مثيلها :

يـــا سيداً سنداً أهوى زيارتـــه
متى ألوذ بما عندي من الأمــــل
مـــدحتـــه و لساني غير مقتنـــع
لا تنطفـــئ شعلة الظمآن بالبلل

وإليكم أبياتاً مدح بها النبي الكريـم ﷺ باسمـه ، بكـل بسـاطة وحلاوة وحب :

شمس على أوج الجلال محمـــــد
بدر على أفق الكمال محمـــــد
أسرى إلى الفلك المحدد وانثنـــى
و أتـــى بإمكان المحـــال محمـــد
منظـــور رب العالمين حبيبـــه
قد فـــاق يوسف في الجمال محمد
غصـــن رطيب مثمر يوم الندى
و مهنـــد يوم القتـــال محمـــد
غيـــم ملث لا يتـــم حبيبـــه
أربى على السحب الثقال محمد
لم يبق في العهد المقدس سائـــل
أغنى الأرامل بالنوال محمـــــد
صقـل النبي صدورنا وقلوبنـــا
و جلا النواظر بالكحـــال محمد

كان الشيخ غلام علي آزاد قد طرق ميادين أخرى غير القصائد المدحية ، فله في دواوينه قصائد شعرية تصل بالحكايات ، والدعوة والإصلاح ، والحب والعشق والجمال ؛ منها : "مظهر البركات ، ومرآة الجمال ، صور فيها المواضيع المرتبطة بها تصويراً رائعاً ، ينبع من التذوق الأدبي الرفيع ونسمة دعوية روحية ندية ، ومقدرته الشعرية الفريدة ، يحكي عن الأديب الشاعر المفكر الكبير الأمير خسرو الدهلوي ؛ فيقول :

خسرو الهند صاحب العرفان
و العديم النظير في الأقران
جوهر قابل من الأتراك
بشر كامل من الأملاك
شيخه المقتدى نظام الدين
نوره في الدجى نظام الدين
مصره زينة الثرى دهلي
نزهة العين للورى دهلي
صام لله أربعين سنة
فأذاقت العيون سِنة
هو في الفرس شاعر مشهور
في فنون كثيرة دستور
قد أتانا بأعذب الكلمات
هي ماء الحيات في الظلمات
كل ألفاظه جمانات
و دواوينه خزانات
هو في قاله عديم المثل
عام ترحاله "عديم المثل" (٢)

(٢) الكلمة تاريخ وفاته ٧٢٥هـ .